مقدمة الطبعة الثانية

يتساءل كل أديب وناقد وباحث عن غرضه الأهم من إعادة نشر كتاب له نفدت طبعته السابقة: هل يمكن أن يضيف إليه شيئاً، أو أن أموراً ظهرت تحتاج إلى تغيير؟

ولمّا كان النقد ساحة متحركة لا تثبت عند حد ما، ولا تنضبط بدعائم محددة ومستمرة لزم المرء أن يدرك ظل التطورات الحاصلة بين الأمس واليوم.

وإذا كان هذا من مقتضيات سنة التطور فهو السبب الذي يفرض على كل واحد منا أن يترك ما كتبه في مرحلة سابقة على حاله، وإن كانت صفة النقصان تلازمه، ولا كمال إلا لأهل الكمال؛ فالإنسان نفسه يُبْنَى على المعنى المعرفي والخلقي والإنساني المتجدد، وهذا التجدد يخوض في الذات تجربة قوية لمحاربة الجمود والتراجع والعدمية.

وفي ضوء هذا النزوع يدرك المتلقي لكتاب (المسبار في النقد الأدبي) أن آفاقه اتسعت لعدد من الموضوعات التي مازالت تقدم نفسها على أنها موضوعات معاصرة ومهمة له وللمهتمين بشأن الأدب والنقد، مايشكل سر الانجذاب إليه ودراسته بكل تأن وموضعية، فهو يحدّد قبوله بإرادة الجدوى المتوخاة منه حين تخلّص من حالة التنظير الصرف، وهي الحالة السائدة في النقد العربي؛ ـ علماً أنها حالة متهمة بالقصور وإطلاق الأحكام كيفما يبدو لأي ناقد ـ . فالكتاب يختار الحقول الدلالية التي يعالجها ويستقصي ملامحها التطبيقية مزاوجاً في التحليل بين التأصيل والحداثة.

حسين جمعة

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

هناك فرق كبير بين النقد الأدبي في صيرورته التاريخية وبين النقد بوصفه علاقة فنية ذاتية وموضوعية؛ وإن كانت الحركة النقدية ـ أياً كان جنسها وانتماؤها ـ لا تتشكل إلا في وعاء زماني مكاني في إطار ظروفها التاريخية والاجتماعية والأدبية؛ والفنية وهو ما يعرف اليوم بالنقد الثقافي. ولعل هذه الفكرة تطرح علينا أسئلة عدة؛ من أهمها:

هل استطاع النقاد العرب أن يشكلوا ملامح نظرية نقدية تمثل خصائص أدبهم صورة ودلالة، أو شكلاً ومضموناً؛ ووظيفة وهدفاً؟!

إلى أي مدىً استطعنا ـ نحن المحدثين ـ أن نحقق تطوراً نوعياً في كل ما ورثناه بما فيه الإنتاج النقدي؟ وكيف تفاعلنا معه؟ وكيف مارسناه في نقدنا؟!، وكيف يمكننا أن نجعل النقد الأدبي متساوقاً مع النقد الثقافي؟

ومن ثم كيف تلقفنا الثقافة الغربية الحديثة الوافدة بما فيها الثقافة النقدية؟!

وهل الواقع الذي نعيش فيه يشكل لدينا عوامل إحباط مستمرة تمنعنا من الوصول مستقبلاً إلى حركة نقدية عربية متقاربة الخيوط والخصائص والأهداف؛ متعاونة في تكوين الرؤية الشمولية العربية؟... أم هل سيبقى التوزع البيئي الجغرافي لأبناء العربية يعزز روح الانفصال، على الرغم من أنهم يكتبون نقدهم وإنتاجهم الفكري والفني بلغة واحدة، على الأغلب ؟!

إن الظروف الموضوعية والذاتية التي تحيط بحركة النقد العربي لم تسمح حتى الآن بتشكيل رؤية نقدية عربية موحدة وواضحة المعالم على وجود الانتماء للثقافة والجنس الواحد غالباً... فالحركة النقدية العربية تتقاذفها رياح التقليد؛ إما للموروث والتمسك به، وإما للآخر الغربي الذي أنتج حركاته النقدية وفق حياته وفلسفته وأدبه... على شدة تنوعها بين فرنسا وأمريكا على سبيل المثال.

وبناء على ذلك فإن البحث عن زمانية أو مكانية تكوين حركة النقد الحديث عند النقاد العرب يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ ليس باعتبار التوزع الجغرافي، أو

Obeikandi.com

التفاوت الثقافي فقط وإنما باعتبار أن أكثرهم لا يزال يتمسح بذيول الثقافة الغربية ومذاهبها الأدبية واللغوية والأسلوبية والنقدية... وما دام ذلك كذلك فإن النقد العربي سيبقى عاجزاً عن تكوين ماهية خاصة به، فضلاً عن أنه سيبقى دون مايصل إليه النقد العالمي شرقاً وغرباً. إن الأدب ـ ومن ثم النقد ـ لا يتأتى بالمعجزات والخوارق، ولا بالتقليد والتبعية، وإنما يتطلب جهداً وصبراً وإرادة قوية، ومعرفة واسعة وشاملة تدرك مالديها وتنفتح على الآخر لاقتباس الأفكار الجديدة... أما أن ننتظر لحظات الإلهام ـ فقط ـ فهذا لن يتمخَّض إلا عن عزلة مستمرة، وتخلف مطرد... وماهو أخطر منه أن ينجرف النقد العربي وراء عوالم الآخرين، والانخراط في معطيات أدبهم ونقدهم، وتباعد نظرياتهم، أو اختلافها إلى مذاهب واتجاهات.

ومن ثم فإن هُوية بعض أنماط النقد غدت تابعة لناقد ما رُوّج له؛ أو لمجموعة نقاد من ذوي الفكر الواحد والاتجاه النقدي المتماثل ـ ولن أسمي أحداً ـ، أو قد تكون تابعة لشاعر ما أُحيط بهالة عريضة من التبجيل والاحترام لأمرٍ ما... والأسوأ من ذلك كله تبعيته لبلد ما، أو لبيئة جغرافية تضم عدداً من البلدان... كما ظهر في مؤلفات عديدة تحمل اسم هذا البلد أو ذاك.

فالتداول النقدي المعروف اليوم ـ مثلاً ـ للإنتاج الشعري أو الروائي أو المسرحي، بل النقدي والبلاغي واللغوي... إنما يشكل في جزء منه إعادة صياغة إنتاج الآخر... مايعني انتفاء الإبداع منه تارة وأُصيب بنزعة التقليد أو التكرار تارة أخرى...

ولعل ذلك يكمن في أن الحركة الأدبية العربية نفسها ما تزال ممزقة الأوصال، وذات أدوات قديمة، أو مناهج تابعة... مما أدى إلى ضعف مردودها وعجزها عن التأثير فضلاً عن أحاديتها الأنانية...

فالشعراء مثلاً ربما يزيدون في الساحة العربية على ثلاثة آلاف؛ وما أنتجوه يزيد على ثلاثة أضعاف عددهم، ومن ثم تزيد الدراسات النقدية والأدبية واللغوية أضعافاً مضاعفة على الإبداع الشعري وأمثاله... فإذا أضفنا إلى هذه المعضلة توزع هذا الإبداع على البيئات الجغرافية مثل بيئة الشام والمغرب ومصر والجزيرة العربية والعراق... أو... أيقنا بعدم وجود حركة إبداعية قادرة على جذب الناس، أو حركة

نقدية متقاربة منها، على الرغم من أن كثيراً منها ابتلي بالتكرار لانقطاع وشائج الاتصال الحقيقي بينها ـ فالتراث ـ مثلاً؛ وبكل أطيافه الأدبية واللغوية والفنية ـ قد تعاد طباعة بعض آثاره أو تشرح غير مرة؛ فيهدر الوقت والجهد.

ومن ثم يمكننا أن نتجاوز ما قلناه عن الضّعف والعجز والتكرار الذي وقع فيه معظمها إذا تخلصنا من هذا الخطر الذي يهددنا. وهو يتمثل بالرؤية الفردية ثم الإقليمية الضيّقة التي عززت مفهوم التجزئة والدولة القطرية، إذ أصبحت الثقافة العربية ذات وجه سياسي وربما طائفي وفكري مشوه وعاجز...

إن اتساع حركة انعقاد المؤتمرات العلمية العربية، ثم الندوات الثقافية المتنوعة مثّل بارقة الأمل في تقارب الرؤية الثقافية والنقدية، لأنها وسيلة إلى الالتقاء وتبادل الآراء... ولكن مثل تلك التظاهرات العلمية ما تزال أسيرة للرؤى الآنية ـ غالباً ـ ولم تقم بإجراءات مستقبلية شاملة وفاعلة كغيرها؛ فضلاً عن أن توصياتها لن تستطيع أن ترى النور وتأخذ طريقها إلى التنفيذ؛ لأنها لا تملك سلطة القرار التنفيذي، وإن صدرت ـ أحياناً ـ عن مؤسسات علمية؛ بعضها ذو صبغة عربية؛ مثل المجامع اللغوية والجامعات والمنتديات الثقافية العامة.

هكذا نجد أنفسنا بعيدين ـ حتى الآن ـ عن تحقيق حركة نقدية حضارية شمولية متماثلة وفعالة سواء في دراسة التراث القديم ونقده؛ أم في دراسة الإبداع الحديث ومناهجه ومذاهبه.. وهذا يعني أننا نعيش حالة ثقافية، ثم نقدية قاتلة، إن لم تكن مدمرة لوجودنا...

وإذا كنا لسنا من المولعين بإلغاء الإبداع الفردي، لأنه الأصل في الإبداع الجماعي؛ فإننا مولّهون بالدعوة إلى الاتفاق على تصور دقيق وشامل يعتمد مناهج علمية دقيقة وواضحة، ومبادئ صالحة للتطبيق والعيش لتكون مسباراً للنَّص الذي يتصدى له الناقد... وهذا ليس بعزيز على الممارسة لأن هناك عدداً غير قليل من رواد جيل عصر النهضة قد نجح في ذلك، وكانت أحوالهم أسوأ بكثير مما نحن فيه... فنحن تراجعنا ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ عما فعلوه في دراسة الإنتاج الفكري والفني والأدبي واللغوي قديمه وحديثه... دون أن ينقطعوا عن المعاصرة والأصالة في

طبيعة النّص المدروس وجنسه وانتمائه... فحين آمنوا بأنه ليس ثمة ثوابت نقدية دائمة في الزمان والمكان لم يقعوا مثلنا في تبعية التقليد للتراث أو الثقافة الغربية، ولم يتطفلوا على أي منهما... وتلقفوا منهما ما ينفعهما. وهذا يعني أنه لابد من تكوين الطرز الفكرية والفنية واللغوية والنقدية المتطورة للمفكرين والنقاد العرب وفق تشكيل عربي جديد يؤدي بالضرورة إلى رصد النسيج الثقافي المتكامل قديماً وحديثاً؛ ومن ثم محاولة الكشف عن أسراره؛ وتحليله لإنجاز الإبداع الحقيقي للحركة الثقافية العربية بما فيها الحركة النقدية... لا أن نبقى أسرى لكل ما يأتي من الغرب الذي يتطور باستمرار في إنتاجه الإبداعي... وكلما انتهى من نظرية تلقفناها دون أي إبطاء، بعد أن يكون قد قذفها إلى مزبلة الزمن كما قال المرحوم الدكتور شكري عياد... فالنظرية النقدية العربية التي لم تؤسس حتى الآن ما زالت تنتظر أبناءها ليستخلصوها بوعي ومعرفة... ولهذا يبرز لدينا السؤال الآتي: أين الرؤى الفكرية والنقدية العربية الشمولية الجامعة للحياة الأدبية الإبداعية؟! وأين يقع الإنسان العربي من كل ما يجري في عالم اليوم من تفجر معرفي ونقدي وعلمي؟ وأين الناقد التطبيقي الذي اشتغل على النّص؟!

ولو صَحَّ وجود استثناءات نقدية عربية هنا أو هناك فما المستوى الذي تمثله على صعيد النقد الشمولي ـ إن وجد ـ ومن ثم على صعيد حركة النقد العالمي؟!... ومن هنا يبرز أمامنا عدد من النقاد مثل الدكتور كمال أبو ديب في كتابيه (الرؤى المقنعة) و(في الشعرية) وأدونيس الذي تشبع هو وشعره بالنقد الغربي ولا سيما الفرنسي وتمثله، ويقاربه عدد من أعلام المدرسة المغربية مثل (عبد السلام المسدي ومحمد مفتاح وسعيد يقطين)... ولا نقلل من شأن النقاد الرواد الكبار في مصر مثل طه حسين ومحمد مندور ومحمود شاكر ثم محمد النويهي وعز الدين اسماعيل وشكري عياد، ثم صلاح فضل وجابر عصفور وعبد العزيز حمودة وإيهاب حسن... ولا ننسى أمثال إحسان عباس ويوسف اليوسف وعدنان بن ذريل وحنا عبود وحسام الخطيب ونعيم اليافي وغيرهم. ونقول: على الرغم من نجاح خطواتهم النقدية فإنها لم ترسم ـ حتى الآن ـ حركة نقدية عربية حرّة ذات أبعاد

obeikandl.com

منهجية منبثقة من أدبنا في طبيعته ومضمونه ووظيفته... فهي لم تستطع أن تنتج المصطلح النقدي الخاص بنا ، ولم تحقق القفزة الفكرية والفنية التي تحقّقت لرواد عصر النهضة ، ولم تستطع أن تتمثل حركة النقد العربية القديمة؛ على أهمية ما جاء به بعض النقاد في مؤلفاتهم...

فالناقد الموضوعي الحر المثقف الواعي النزيه يمكنه أن يقبض على جوهر النَّص مضمُوناً أو شكلاً ، وأن يتمثل إشاراته ومعطياته في كل زمان ومكان... إذا افترضنا أنه لن يسقط في الفردية والهوى، ولاسيما حين يترك للتذوق الفطري الانطباعي السيطرة عليه أو أنه لن يكون مجرد صدى للآخر. فإذا كان النقد في مراحله الأساسية يستند إلى بذرة التذوق المرهف فعلى الناقد أن يرتقي به ليستثمره في نقده الموضوعي المنهجي المعرفي، بوصف النقد علماً وقواعد في نهاية الأمر... وقد تجسد ذلك كله حقيقة ناصعة على يد عبد القاهر الجرجاني. والجرجاني كان واحداً من النقاد العرب القدماء الأفذاذ الذين جعلوا الحَدْس والذوق المرهف أساس النقد... ثم ارتقوا به عما كان عليه في العصور السابقة لهم، إذ تطور عندهم إلى الفحص الدقيق للنّص ومنهجه وتحليله في بنيته السياقية ، وفي عناصره المكونة له؛ وإن لم تتكامل فيما بينها.

لهذا كله كان لابد لنا أن نسبر أجزاء غير قليلة من نقد القدماء ونقد جيل الرواد ومن تبعهم لتأثيله وبيان منزلته في عصر يسود فيه الجحود ونفي الآخر من جهة ومن جهة أخرى ليكون درساً لنا يبين كيف يكون التراث مادة نقدية ثرية تغني حركة النقد العربي دون أن تقطع صلتها بالمثاقفة مع الآخر الغربي، أو غيره...

وبناء على ما تقدم حاولنا تشخيص قراءة النّص الأدبي وبيان مفهومه والمعايير الذاتية والموضوعية التي يتصف بها الناقد ليسبر أي نص بوساطتها ، جاعلاً مشروعه الأصيل لخدمة وجوده وثقافة وهويته ، جامعاً بين النقد الأدبي والنقد الثقافي مايعني أن المنهج التحليلي التكاملي أحسن ما يحقق لنا ذلك... لذا توقفنا عند الآراء النقدية التي تناولت النصوص فاتصلنا بمفهوم نقد النقد.

ومن هنا آثرنا أن يكون هذا السبر في نزوع نقدي تطبيقي مستند إلى الشعر القديم ونقده لدى القدماء والمحدثين؛ والمناهج التي تناولوها... ومن ثم انتقلنا من

obeikandi.com

الخاص إلى العام ومن القديم الجديد إلى الجديد القديم في أحدث نظريات النقد (التناصية) وكشفنا فيها قيمة ما قدمه العرب القدماء في هذا الشأن... ومارسنا فيه مفهوم نقد النقد بكل تجلياته.

ولذلك كله جعلنا الفصل الأول بعنوان "كيفية قراءة النص الأدبي ـ النص الجاهلي نموذجاً". وتبنى بيان صفات القارئ الناقد الواعي الحر وشروطه وكيف يمارس العملية النقدية المنهجية الصحيحة في صميم قراءة التجارب القديمة؛ ثم بيّن مناهج عدد من دارسي الشعر الجاهلي كالدكتور طه حسين ويوسف خليف وكمال أبو ديب وأصحاب المنهج الجمالي كالدكتور مصطفى ناصف، وعرض لعدد من أصحاب المنهج الأسطوري في قراءة الشعر القديم.

وحين اتجه هذا الفصل إلى هذا كله في إطار الثقافة النقدية المعتمدة على تجربة حقيقية تعالج جوهرالشكل والمضمون فرض المنهج التحليلي التكاملي ذاته عليه وعلى غيره.

وعالج الفصل الثاني "شعرنا القديم ـ صورة ودلالة" بشفافية مطلقة فكرة الصورة الشعرية ودلالتها بوصفها وثيقة فنية ذات إيحاءات نفسية واجتماعية وفكرية وتاريخية وطبيعية، وثيقة فنية كثيرة اللذة في النفس والذهن. فالصياغة توحي للمتلقي بأسرار كثيرة، وبإشارات لا حصر لها في الشكل الموحي بالمضمُون والوظيفة... وليس هنا من شك في أن هذا الفصل حاول إبراز عدد من الوظائف للشعر القديم ولكنه في الوقت نفسه ركز على مفهوم الشعرية ـ تطبيقاً ـ لا تنظيراً في عناصرها كلها ولا تعميماً في الحكم لأن التعميم تعمية، وأهمها الرؤية الواضحة ثم الخيال والعاطفة الأخاذة...

فهذا الفصل يتبنى كالفصل السابق روح الأصالة والمعاصرة في ثوب نقدي جمالي موضوعي وشفاف ومثير... فهو لم يقع في مفهوم الناسخ والمنسُوخ الذي ذهب إليه المفكر والناقد الفرنسي (رولان بارت: ١٩١٥ ـ ١٩٨٠م) وتبناه في نظريته (موت المؤلف) ثم سرى بين النقاد العرب سريان النار في الهشيم، فتبناه أكثرهم في دراسات ما بعد البنيوية على أنه حقيقة مُسَلَّم بها، علماً أنه لولا المبدع الأول لما وجد

النَّص ـ وهو مندمج فيه على نحو كبير ـ ولولا النص لما وجد المبدع الثاني (المتلقي) الذي يثري النّص ولا يقتل أُبوَّته.

هكذا لزمنا النقد التاريخي التطبيقي للانتقال من القديم إلى الجديد وكذا لزمنا النقد الموضوعي الانتقال من الجديد إلى القديم لإبراز قيمة ما قدّمه النقد العربي القديم لأبنائه أصحاب النقد الحديث الذي ابتلي بغير قليل من التشوهات والتبعية للآخر في أشكاله ومضمُونه... فبرزت أمامنا "نظرية التناص" التي انتهت وفق المثاقفة والتجريب إلى استلهام آراء قديمة متعددة المشارب.

لهذا وجد الفصل الثالث (نظرية التناص ـ صك جديد لعملة قديمة) وأبرز قيمة ما قدمه الأجداد في هذا المجال، دون أن ينكروا أثر المثاقفة مع الآخر والانفتاح على ثقافة منهجاً وأسلوباً، مما هيأهم لإبداع حركة نقدية خاصة بهم، ودون أن يلغوا وجودهم، أو يذوبوا في ثقافته؛ لأنهم عايروها على أدبهم مايفيد بأنهم لم يتوافقوا يوماً عن الإنتاج والابتكار.

ثم وقف هذا الفصل عند عدد من الأشكال الفنية والآراء النقدية التي زعم الغرب أنه مبدع لها وهي مؤثلة في النقد العربي القديم على أهمية ما أضافه النقد الغربي من مناهج وآراء مستمدة من فلسفة أهله وحياتهم وأدبهم... وعرضنا لذلك كله في شكل من الحوار الإيجابي الهادئ والقائم على الحرية واحترام الآخر في التأويل.

وفي صميمه أدركنا أن نظرية التناص تجسد المذهب النقدي لما بعد الحداثة، وقد تلقفها عدد من الدارسين العرب وطاروا بها في الآفاق معتمدين آلياتها وأشكالها في نقدهم الحديث... وأخذوا يتنازلون عن مذهب البنيوية والتفكيكية شيئاً فشيئاً، على الرغم من صلة نظرية التناص بالبنيوية، وإن كان التناص ولد بداية في صميم النظرية السيمولوجية، كما يرون، وفي الحالتين نسوا أنها متجذرة في التراث العربي على نحو ما.

لذلك كله جمعت الفصول الثلاثة بين النقد الأدبي ونقد النقد، وتعلق جوهرها ـ على الأغلب ـ بنقد المحدثين للإبداع العربي القديم، وغاصت في عمق التحليل التكاملي فأخذت اسمها "المِسْبار في النقد الأدبي".

obeikandi.com

وهي في الأصل تعود إلى سنوات عدة سابقة؛ إذ نشرت منفصلةً في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مجلد ٧٤جـ٢ ومجلد ٧٥ جـ٢) ومجلة جامعة دمشق (مجلد ١٤)، ولكني رجعت إليها ونظرت في أنحائها فصححت بعض ما وقع فيها، وأضفت إليها أفكاراً غير هينة؛ وفق رؤية نقدية متطورة؛ أكسبتها حلة جديدة.

ومن ثم فإننا لما أيقنا بأن تبعثرها قد أفقدها مزية السبق الزماني في العديد من الآراء النقدية والفكرية والفنية في عالم يضج بالادعاءات حرصنا على جمعها في عقد واحد ـ لأنها تتصف به وهو نقد النقد ـ لنقدمها إلى القارئ الكريم ليطلع عليها وهي مجتمعة... وهو وحده من يعلق بالحق، وبكل ما يخدم التراث العربي ونقده... وينفتح على المعاصرة بعيون متوهجة وقلب وقّاد وعقل أصيل ومنصف... فالتراث ـ أياً كانت إبداعاته ـ ممتد فينا، ونحن نشأنا في رحمه، ومن لا تراث له فإنه لا أب له، وعلينا الإفادة منه واستلهامه في ضوء ما يثريه من نقد حديث. وكلي ثقة بأن تسُدَّ دراستي هذه ثَلْمة يسيرة في جدار النقد العربي؛ لتبني حركته وفق منظور فعَّال؛ معززاً قيمة الإبداع الفردي الخلّاق الذي يعد جزءاً أصيلاً من الإبداع الجماعي في صورة من الأصالة والمعاصرة، دون أن أدعي لها الكمال، فما هي إلا واحدة من الدراسات النقدية العربية.

بقي أن أقول في ختام مقدمتي هذه ـ وأرجو ألا أكون قد أطلت فيها ـ: إنني حافظت في كل فصل من الدراسة على وحدته البنائية والمرجعية في إطار التكامل المنهجي بين طرائق النقد وبين العلوم الأخرى ومناهجها... مازجاً بين القديم والحديث، معتمداً منهج التنظير ثم التطبيق... وربما وقع شيء من التكرار في المصادر والمراجع، على اعتبار أن كل فصل مختص بمصادره، وهذا يوافق منهج الدراسات الغربية الحديثة... أما التكرار الذي وقع أحياناً في بعض المقولات والآراء فإنه ناتج عن السبب السابق، وإن أفاد التوكيد أحياناً؛ ولكن العذر مقبول عند كرام القوم وأهل الرأي...

والله من وراء القصد، وله العتبى حتى يرضى.

حسين جمعة